

## استرنايحية المنرجح في " إعتاب الكُتاب " لابن الأَبَّار د. شاكر لقمان جامعة أوج البواقجي

ملخص:

يمثل كتاب " إعتاب الكُتاب " لابن الأَبَّار موسوعيةً صاحبه في التأليف التي اكتسبها . بالإضافة إلى موهبته واستعداداته . منذ نعومة أظافره صحبة أبيه الذي رعاه أحسن رعاية وأوصى به أستاذه الربيع الكلاعي الذي لازمه بعد وفاة أبيه.

فقد عبّر هذا المؤلف على كبير اقتداره من ابن الأَبَّار في استيعاب ثقافة عصره ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يعد الكتاب رسالة إعتاب للسلطان أبي زكريا الحفصي ، طمعا في إقالة العثرات ، لذلك كام موضوعه يدور حول سعي الكاتب إلى ذلك بأسلوب جمع فيه صفة التأريخية والأدبية مستقيا مادته من تاريخ الوزراء والملوك والأمراء مع المغضوب عليهم من الكُتاب ، ومن الآداب السائرة في تلك الفترات .  
الكلمات المفتاحية: ابن الأَبَّار ، التراجم ، إعتاب الكُتاب ، المنهج.

### Summary :

The book 'Ietab Al Kouttab' of Ibn Al Abbar represents him as an acquired encyclopedia in authorization, in addition to his talent and readiness. Since his early years with his father who provided him with the best care and by recommending his teacher 'Rabii Al Kaylani' who accompanied him after his father's death.

This book has reflected his great mastery from 'Ibn Al Abbar', on one hand, In absorbing the culture of his time, on the other hand, The book is a letter of repentance to the Sultan 'AbiZakaria Al Hafsi' , hoping for forgiveness, So his subject was about the requesting that, through a Historical and literary style by inspiring from The history of ministers, kings and princes with their wrath of writers, and from the literature of those periods.

**key words:** Ibn Al Abbar, Translations, Ietab Al Kouttab, Approach.

### مقدمة:

لقد كان ابن الأَبَّار كثيرَ التأليف ، وفي ميادين متنوعة ، أحصى معظمَ هذه المؤلفات المستشرقُ الألماني كارل بروكلمان ، والمرحوم عبد العزيز عبد المجيد ، وغيرهما من المهتمين بالتراث الأندلسي عامة ، وبمؤلفات ابن الأَبَّار بخاصة.

كما كان للأديب والمؤرخ رسائلٌ متعددة ؛ بحكم تكليفه من قبل الحكام سواء في الأندلس في عهد أبي زيد أو في تونس في بلاط الحفصيين ، أشار إلى معظمها المقرري في " نفح الطيب " وفي " أزهار الرياض " ، و الغبريني في " عنوان الدراية " .

إلا أن هذه العناوين . على كثرتها وتنوعها . لم يسلم جُلُّها من التلف ؛ بحيث لم يبق منها سوى ثمانية مؤلفات ، طُبعت جميعها ، بما فيها الديوان ، الذي طبعته الدار التونسية ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية سنة 1420هـ/1999م، وهي كالاتي: إعتاب الكُتاب و المقتضب من كتاب تحفة القادم و التكملة لكتاب الصلة و الحلة السيرة في أشعار الأمراء و مظاهرة المسعى الجميل ومعجم أصحاب أبي علي الصدفي و درر السمط في خبر السبط و ديوان شعره.

أ. ابن الأبار:

هو أبو عبد الله محمد<sup>1</sup> بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي<sup>2</sup> المعروف بابن الأبار ، من قبيلة قضاة اليمانية ، التي سكنت أندة (Onda) إحدى ضواحي بلنسية (Valencia) . وبها ولد سنة 595 هـ / 1199 م ، وتوفي في شهر المحرم سنة (658 هـ / 1260 م).

واشتهر بلقب ((ابن الأبار)) ، وفي ذلك يذهب إبراهيم الأبياري محقق المقتضب من كتاب تحفة القادم (( إلى أن الرجل

(( كان خبيث اللسان إذا هجا لا يعرض لخصمه في وضح النهار، ولكن يدب له الضراء ويمشي الخمر، أشبه شيئاً بالفأر إيذاءً واستخفاءً...))<sup>3</sup>.

وبسبب هذه الصفات هجاه أبو الحسن علي بن شلبونالمعافريالبلنسي بقوله [الكامل]:<sup>4</sup>

لَا تَعْجَبُوا لِمَصْرَّةِ نَالَتْ جَمِيدٍ عَنِ النَّاسِ صَادِرَةٍ عَنِ الْأَبَارِ

أَوْلَيْسَ فَأَرًا خَلْقَةً وَخَلِيقَةً وَالْفَأْرُ مَجْبُولٌ عَلَى الْإِضْرَارِ

فأجابه ابن الأبار [الكامل]:<sup>5</sup>

قُلْ لِابْنِ شَلْبُونٍ مَقَالَ تَنْزُهُ غَيْرِي يُجَارِيكَ الْهَجَاءَ فَجَارِ

(إِنَّا أَفْتَسَمْنَا خَطْبَيْنَا بَيْنَنَا فَحَمَلْتُ بَرَّةً وَاحْتَمَلْتُ فَجَارِ)

غير أن محقق الديوان " عبد السلام الهراس " ينفي هذا الزعم القائل برد الاسم إلى هذه الصفات التي ذكرها ابن شلبون .

عاش ابن الأبار ثلاثا وستين سنة في بيت علم ودين ، ومركز اجتماعي مرموق في بلنسية إذ كان والده من علماء هذه البلدة ووجهائها ، ومنه استقى مادته الخام في شتى العلوم ومختلف المعارف ، إلى جانب اختلاطه بمعارف أبيه الذين كانوا من المشايخ ، وأهل التقى ؛ نذكر منهم على سبيل المثال : محمد بن خلف بن مرزوق بن أبي الأحوص ، أبا عبد الله بن نسع ( 509 هـ . 599 هـ ) ومحمد بن أيوب بن نوح الغانقي ( 530 . 608 هـ ) وأحمد بن علي بن يحيى بن عون الله الأنصاري ( 530 . 609 هـ ) ، وعتيق بن علي بن خلف بن أحمد ابن عمر الأموي أبو بكر بن قنترال ( 526 هـ . 612 هـ ) والحسين بن يوسف بن أحمد الأنصاري المعروف بابن زلال أبو علي الضرير ( 613 هـ ) وعبد الله ابن أحمد بن محمد المعروف بالسبطير ( 601 هـ ) وآخرين ، كلهم من وجهاء القوم وأعيان البلاد .

وكان ابن الأبار قد وصف أباه بأجل الصفات قائلا : (( وكان رحمه الله . ولا أركيه . مقبلا على ما يعنيه ، شديد الانقباض ، بعيدا عن التصنع ، حريصا على التخلص مقدما في حملة القرآن كثير التلاوة له والتهجد به ، صاحب ورد ، لا يكاد يهمله ذاكرة للقراءات ، مشاركا في حفظ المسائل آخذا فيما يستحسن من الآداب معدلا عند الحكام ... ))<sup>6</sup>.

و إلى آفاق رحبة رافق الابتأباه ، وكُلُّه ثقة بأنه بالغ هدفه ، مادامت سبل العلم ميسرة وطرق التعلم متاحة ؛ لأنه سيكون في أمان بصحبة الأب الرحيم والسند العظيم إلى حلقات الدرس ، ومجالس العلماء . فتوسم فيه كل من رآه علامات النباهة وأمارات النبوغ ، الأمر الذي جعل أحد رجالات العلم وهو القاضي أبو بكر بن

أبي جمرة (518هـ . 599هـ) يجيزه مرتين ، وهو ابن عامين ، وفي ذلك شئى من التشريف ، يُختص به . عادةً . أولاد السادة والعلماء . وهذه شهادة في حد ذاتها تضاف إلى الأب . استنهاضا لهمهمم وإذكاءً لعزائمهم حتى لا تخور ، بخاصة وأنهم في مقتبل العمر .

جلس الابن إلى جانب أبيه ، يتلو عليه القرآن بقراءة نافع ويسمع منه الأخبار والأشعار.<sup>7</sup> وكان ابن الأَبَّار . إلى جانب ذلك . معروفا بالجد وسرعة التحصيل ، والمثابرة (( وأوتي منالذكاء وبُعدَ الفهم وقوة الذاكرة وبلاغة اللسان ما كان كفيلا بأن يُهيئَ له حياةً سعيدةً أو مستقرةً على أقلِّ تقدير ))<sup>8</sup> . ولقد أرجع عبد السلام الهراس هذه الرعاية من قبل الأب إلى كون الابن كان . فيما يبدو . وحيداً أبيه .

كما يذكر المؤرخون أن " محمدا " لم يكن محل رعاية الوالد فحسب ، وإنما هناك شيخ عصره وأستاذه الذي كان ذا أثر كبير على حياة ابن الأَبَّار ، والمسمى بأبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميدي الكلاعي(565هـ . 624هـ/1169-1227م) الذي كان محل إعجاب من طرف التلميذ ، الذي كان من واجبه أن يستطرد في التعريف بشيخه وأستاذه فيقول :

((...وعُني أتم عناية بالتقليد والرواية ، وكان إماما في صناعة الحديث بصيرا به حافظا ، حافلا ، عارفا بالجرح والتعديل... يتقدم أهل زمانه في ذلك ،..وهو آخر الحفاظ والبلغاء المترسلين بالأندلس))<sup>9</sup> .

ولم يكتف التلميذ بذكر صفات أستاذه ، وأخلاقه ، ولكن تعداها إلى مؤلفاته المتعددة ومواهبه المتنوعة ، بيانا لمكانته عنده بخاصة بعد وفاة أبيه ولدى غيره من المتعلمين .

ولما استشهد أبو الربيع سليمان الكلاعي في وقعة (أنيشة) ، رثاه ابن الأَبَّار بقصيدة مطولة<sup>10</sup> بلغت بيتا ومئة بيت ؛ جعل منها خمسين بيتا في بكاء شهداء أنيشة وواحدا وخمسين أخرى أرسلها زفراة حارةً إلى روح فقيد العلم والأدب الذي بموته خبا الكوكب الوقاد فيقول في المطلع [الطويل]:<sup>11</sup>

أَلِمَّا بِأَسْلَاءِ الْعُلَى وَالْمَكَارِمِ نَقْدُ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالصَّوَارِمِ

كما تطرق الشاعر في القصيدة إلى ذكر مكان وزمان هذه المعركة التاريخية قائلا [الطويل]:<sup>12</sup>

سَقَى اللَّهُ أَشْلَاءَ بِسَفْحِ أَنْيْشَةَ سَوَافِحَ تُرْجِيهَا ثِقَالُ الْعَمَائِمِ

أَضَاعَهُمْ يَوْمَ الْحَمِيسِ حِفَاطُهُمْ وَكَرَّهُمْ فِي الْمَازِقِ الْمُتَلَاحِمِ

و إلى جانب شيخه المبجل أبي الربيع سليمان الكلاعي ، نذكر من شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم : أبا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن سعادة ( . 614هـ ) ، داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن خلف بن عبد الله الرؤوف بن حوط الله الأنصاري الحارثي(621هـ) ، محمد بن إبراهيم بن مسلم البكري (627هـ) ، ومحمد بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن أبي زاهر المكتب (633هـ).

ب . ابن الأَبَّار في إفريقيا :

غادر ابن الأَبَّار الجريح مرفوقا بأسرته المكلمة الأندلس ( بلنسية ) . وما كان لهم في يوم من الأيام أن يفكروا مجرد التفكير في هجرة الوطن والأحباب ؛ مسقط الرأس ومرتع الصبا ودرب الطفولة والشباب ، ومطمح الآمال والأنفس ، ولكن هي الأيام لا تضرب لما نُقِدِمُ عليه موعدا ، وخاصة أن المهاجر كان مُرْعَمَا على ذلك ؛ لأن بلنسية سقطت في أيدي الأعداء. اتجه إلى تونس حيث بلاط الحفصيين ، وكانت ((بجاية))

أول محطة حظّ فيها الشاعر رحاله . ويتضح من أشعار في الديوان أن رحلته هذه كانت بحرا ، انطلاقا من بلنسية .<sup>13</sup>

لم يُقَمِّ المهاجر في بجاية إلا بضعة أشهر ، ودرس بها وأقرأ ، وروى وسمع وصنّف وألّف .

وسبق وأن لقي لدى أميرها ترحيبا كبيرا لما جاءه مبعوثا من ابن مردنيش مستصرخا ومستجدا.

وقد ابن الأَبَّار . هذه المرة . كواحد من تلك الجالية الأندلسية التي فرّت بجلدها بعدما تركت موطنها مخربا بأيدي الكفرة ، الذين أحرقوا الزرع ، وتسببوا في جفاف الضرع نتيجة الغزوات والحروب المتوالية ، إلا أن شاعرنا كان أحد أعلام هذه الفئة البارزين ؛ فاسمُه اللامع سبق حضوره ، وقد كان يأمل في أيام أحسن من تلك التي عاشها ، وجوّ أنسبَ للحياة في ظل الدولة الحفصية الفتية التي ستعيد للشاعر أمله المغيب ؛ تدفع عنه غربته التي كان يحياها وهو بين أهله .

فبعد أن استقر مقامه لدى الأمير الحفصي أبي زكريا ، الذي أحسن وفادته وقدرَ مواهبَه الأمر الذي جعله يعهد إليه بكتابة الإنشاء والعلامة . والعلامة هي عبارة التوقيع التي تضاف إلى المكاتبات السلطانية ، وتُرفَع إلى السلطان ليضعَ عليها خاتمَه .

وكان ابن الأَبَّار يكتب هذه العلامة بخطه المغربي ، في الوقت الذي كان السلطان يفضلها بالخط المشرقي ، ومع تمادي الكاتب في توقيعه المغربي ، أمر بأن يكتفي بإنشاء المكاتبات ، وتترك العلامة المشرقية المختارة لأحمد بن إبراهيم الغساني (417هـ . 498 هـ/1026 م) فسخط لذلك ابن الأَبَّار ورمى بالقلم وأنشد قائلاً [الخفيف]:<sup>14</sup>

أَطْلَبُ العِرَّ في لظىٍ ودرِّ الدُّلِّ ولو كانَ في جِنَانِ الخُلُودِ

فبلغ ذلك السلطان ، فأمره بلزوم بيته . ومن هنا تبدأ رحلة معاناة الشاعر مع الحفصيين . وهو لا يعلم ، وإلا ما كان ليُقدِّم على ذلك . التي شرع يفتل خيوطها الحساد والغيورون من الوافدين على تونس ، وكان جُلهم من بيوتات عربية عريقة وذوي جاه وعلم في وطنهم ؛ من أمثال الرئيس أبي عبد الله بن الحسين العنسي الذي كان له دور لا يستهان به في تغريب ابن الأَبَّار إلى بجاية ، إلى جانب الحفصيين المقربين من السلطان الذين كانوا يرون في نباهة الشاعر تهديدا لمصالحهم وخطرا على مكانتهم .

فبعد قرار السلطان بالإبعاد ، استشعر الكاتب المستقدّم خطورة المرحلة ، وتوجس خيفة من مغبة الأمر ، فندم وأحس بنوع من التسرع في تصرفه فكتب رسالة كانت كتابا يستشفع فيها بأبي زكريا الحفصي ، سُمِّي هذا المؤلفُ (( إعتاب الكُتَّاب )) رفعه إليه واستشفع فيه بابنه المستنصر بالله ، فأقال السلطان عثرته ، وأعادَه إلى الكتابة .

ويقال إن هذه الرسالة ( الكتاب ) قد بدأ في تأليفها في الأيام الأخيرة من حياة أبي يحيى وليّ العهد ، وحينما وافته المنية بعدئذ قبل أبيه بسنة واحدة ( 646هـ/1248م ) صار الأمر بعد ذلك إلى محمد ، المعروف "بالمستنصر" ؛ وليّ العهد الجديد ، الذي أبقى على ابن الأَبَّار في عمله لأن المذنب نزلَ عن بَأوهِ وأنفته التي أفسدت مكانته لدى أبي زكريا الأبِ وقَبِلَ طلبَ العِرِّ في اللظى مع الدُّلِّ ، واعترف بجريرته ، نادما

على ما نَدَّ منه ، وجاء عبداً آيباً مطيعاً لمولاه ، بعدما استطعم غضب السلاطين ، فوجده مُرَّ المذاق ،  
وطاله من جزاء فعلته بؤسٌ طويل، فيقول نادماً مستعتباً [الكامل]:<sup>15</sup>

نَدَمِي عَلَى مَا نَدَّ مِنِّي دَائِمٌ وَعَلَامَةُ الْأَوَابِ أَنْ يَتَنَدَّمَا  
يَا طُولَ بؤْسِي مُبْسَلًا بِجَرِيرَةٍ إِنَّ لَمْ تُجْرِنِي بِالتَّجَاوُزِ مُنْعِمًا  
مَوْلَايَ رُحْمَاكَ الَّتِي عَوَّدْتَنِي إِنِّي اعْتَمَدْتُكَ خَاضِعًا مُسْتَرْجِمًا  
فَأَحَقُّ مَنْ تُوَلِّيَ الْإِقَالََةَ عَائِرٌ لَمْ يَسْتَحِبَّ عَلَى الْهُدَى قَطُّ الْعَمَى

وما كاد ابن الأَبَار المذنبُ المسترحمُ يهنأُ ببشائر العفو، الذي ملأ بيته فرحاً وسروراً حتى عاد من جديد  
الكدْرُ والنحس مع وليِّ العهد الجديد المستنصر ، الذي سرعان ما أقاله ثم نفاه إلى بجاية لأسباب ، أرجعها  
محققُ الديوان (( لخلقه الصعب وتأمير حساده عليه ولطيش أمير المؤمنين)).<sup>16</sup>

وستكون هذه الأسباب مجتمعةً كافيةً بأن تكون مقنعة لدى الخليفة ذاته بقتله، خاصة وأن هذا السلطان  
المستنصر كان

(( شديداً جداً مع خصومه ومناوئيه ؛ فقد قتل عمه اللحياني سنة 648 هـ. ومعه جماعة كبيرة من الأعيان  
والأقارب ، وكان المستنصر يتربص خيفة من أي تحرك ولهذا كان الجؤ مهياً للسعاية ضد ابن الأَبَار الذي  
كثر حاسدوه)).<sup>17</sup>

أما مرحلة النفي . وللمرة الثالثة إلى بجاية . كانت أكثر اختلافاً من سابقتها، وأفضل منها ؛ لأنها تصدق  
عليها مقولة (( رَبِّ ضَارَةٍ نَافِعَةٌ )) ؛ لأن ابن الأَبَار أتاحت له إقامته الجديدة بهذه المدينة المباركة ، التي لم  
يضايقه فيها أحد ، والتي امتدت إلى أكثر من سبع سنوات ( من سنة 650 هـ إلى غاية سنة 657 هـ ) ،  
وبجعلها بعضهم أكثر من ذلك فرصة العطاء الجمِّ والإنتاج الغزير ؛ ففيها أنهى تأليف كتابيه " التكملة  
لكتاب الصلة " الذي كان قد بدأه بالأندلس ، و" الحلة السيرة " الذي بدأ في تأليفه بتونس عقب استقراره  
فيها .

فكان المنفي في هذه الفترة بعيداً عن السياسة والسياسيين ، قريباً إلى التصنيف والتدوين ، ساعده في كل ذلك  
حظوته لدى أمير بجاية ، الذي قدر مواهبه . هو أيضاً . وأبعده عن أسباب الشكوى من الضياع والفقر ،  
وكثرة الإلحاح والشفاعات بإكرامه والإغداق عليه.

تفرغ ابن الأَبَار في هذا الجؤ المناسب إلى التأليف ونشر العلم وحمله من كل مَنْ يتوسم فيه الفائدة والاستزادة  
، وحملَ علمه الكثير من أهل بجاية ، قال عنه الغبريني (( رحل إلى العدو واستوطن بجاية ، ودرَسَ بها  
وأقرأ وروى وأسمع وصنّف ، وألّف وهو ممَّن لا يُنكَرُ فضلُه ولا يُجهلُ نبلُه ، له تأليفٌ حسنةٌ ، ونزعاتٌ في  
علم الأدبِ بارعةٌ مستحسنةٌ)).<sup>18</sup>

ج . عودته إلى تونس ومقتله:

لم يكن ابن الأَبَار المُبعدُ يتخلف عن فرصة ، تُعيده إلى بلاط الحفصيين ، فلقد سعى من أجل تحقيق أمنيته  
ابنُ عميرة ؛ صديقُه وشيخه . الذي يفوقه بثلاث عشرة سنة . ورفيقُه في طلب العلم على الشيخ الجليل أبي  
الربيع الكلاعي ، وفي الكتابة لدى أبي زيد الموحدى بإرجاعه . كما يتوق . إلى خدمة الأمير الحفصي

بتونس ، فكتب إلي ابن الأَبَر في سنة 657 هـ بالعزم على الحركة والسفر نحو الحضرة مكرّماً مبروراً ، فالتحق مرة أخرى بحاشية أمير المؤمنين وخليفة المسلمين المستنصر بالله ، وأنشد بين يديه [الكامل]:<sup>19</sup>

بُشْرَايَ بِأَشْرَتْهُ الْهُدَى وَالنُّورَا      بِلِقَائِي الْمَسْتَنْصِرَ الْمَنْصُورَا  
وَإِذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَقِيْتُهُ      لَمْ أَلْقَ إِلَّا نَصْرَةً وَسُرُورَا

يذكر المؤرخون أنه جرى في بعض الأيام ذكرُ مولد الوائق وليّ العهد وطالعه ، وساءل عنه السلطان بعض مَنْ حضرَ فاستبهم ، فغدا عليه ابن الأَبَر بتاريخ الولادة وطالعهَا فَاتَّهَمَ بِتَوَقُّعِ الْمَكْرُوهِ لِلدَّوْلَةِ الْحَفْصِيَّةِ وَالتَّرِيصِ بِهَا .

ولكن هذه المرة لم يُنْفِهِ السُّلْطَانُ ، نظراً إلى تَقَدُّمِهِ فِي السَّنِّ ، وإنما احتقره وأهمله فآلمَ ذلك الشاعرَ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِ كَثِيرَا ، فقال [الوافر]:<sup>20</sup>

عَلْتُ سِنِّي وَقَدْرِي فِي انْخِفَاضِ      وَحُكْمِ الرَّبِّ فِي الْمَرْبُوبِ مَاضِ  
إِلَى كَمْ أُسْخِطُ الْأَقْدَارَ حَتَّى      كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا بِرَاضِ

وحاول ابن الأَبَر . على الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ . التَّقَرُّبَ إِلَى السُّلْطَانِ ، عسَاه يَصْفَحُ عَنْهُ وَيُقِيلُ عَثْرَاتِهِ وَيَفْهَمُ تَعَامَلَاتِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ ؛ كَتَهْنِئَةٍ بِإِبْلَالِ<sup>21</sup> ، أَوْ طَلَبِ عَفْوٍ مِنْ جَفْوَةٍ وَإِهْمَالِ<sup>22</sup> .

بقي الرجل في انتظار العفو . كما أَلْفَ . إلا أن الحاسدين هذه المرة كانوا له بالمرصاد واستغلوا هذه الجفوة بين السلطان والشاعر في ظل التنافس الكبير الذي تشهده الساحة السياسية بين البَلَدِيِّين من جهة باعتبارهم الأولى في أي استحقاق ، وبين الأندلسيين بحكم مؤهلاتهم العلمية وتفوقهم على غيرهم في احتكارهم المناصب الهامة في البلاط الحفصي فأوغروا صدر المستنصر؛ شديد المراس والبطش على ابن الأَبَر ، حاداً المزاج وضيق الخلق فدسُّوا . على ما يذكر بعض المؤرخين . على لسانه بيتا من الشعر يقول [المجتث]:<sup>23</sup>

طَعَا بِتَوْنَسَ خُلْفٌ      سَمَّوْهُ ظُلْمًا خَلِيفَةٌ

فاستشاط لها السلطان ، وأمرَ بامتحانه ، ثم بقتله ، فقتل قعصاً بالرماح ، وكان ذلك يوم الثلاثاء: 20 محرم سنة 658 هـ/ 1 . 6 . 1260 م ، ثم أحرقَ شلوه ومجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه .

وقد قال محقق الديوان " عبد السلام الهراس " في نهاية مقدمة الديوان كلمة جلييلة ، ترتعد لها الفرائس (( وقد سجّل التاريخ أن ملكاً ظالماً فَتَكَ بِعَالِمِ جَلِيلٍ ظَلَمًا وَعَدْوَانًا ، وَأَحْرَقَهُ كَمَا أَحْرَقَ إِنتَاجَهُ الْعِلْمِيَّ الضَّخْمَ وَذَلِكَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ 20 محرم سنة 6/658 . 1 . 1260 ، وربما كان يدرك ابن الأَبَر مصيره فاستسلم للأقدار ، قائلاً [الطويل]:

أَمَا إِنَّهُ قَدْ خُطَّ فِي اللَّوْحِ مَا خُطَّا      فَلَا تَعْتَقِدْ لِلدَّهْرِ جَوْرًا وَلَا قِسْطًا

وَلَا تُسْخِطِ الْمَقْدُورَ وَارْضَ بِمَا جَرَى      عَلَيْكَ بِهِ إِنَّ الرِّضَا يُفْضِلُ السُّخْطَا))<sup>24</sup> .

هكذا كانت نهاية عالم وأديب وفقهه ، ومؤرخ جليل ، عاش ثلاثا وستين سنة هجرية ؛ اثنتان وأربعون منها في الأندلس؛ موطن صباه ونشأته ، وإحدى وعشرون الباقية في المغرب .

لم يسعد في الأولى ، ولم يهنا في الأخيرة ، وانتهى به الأمر مقتولا على يد مَنْ كان له مُغيثا ومستشفعا في كثير من المرات ومعينا . رحمه الله .

**منهج ابن الأبار في تراجمه فيكتاب " إعتاب الكُتّاب " :**

لابن الأبار مؤلفات متعددة في التاريخ . كنا قد أشرنا إليها في الصفحات السابقة . جعلت منه مؤرخا بامتياز . ويعد كتاب "إعتاب الكُتّاب " أحد هذه المؤلفات في تاريخ مَنْ عاصرهم أو اتصل بهم في المشرق والمغرب . ولابن الأبار في هذا الكتاب طريقة خاصة غلبت على أكثر مؤلفاته في هذا الشأن الخاص بالتعريف بالشخصيات ذات المكانة المرموقة في ذلك الزمان .

وفيما يلي عرض لمنهج المرجح في كتاب " إعتاب الكُتّاب " :

### 1 . مقدمة المؤلف:

يبدأ المؤلف بمقدمة يعرض فيها موضوع كتابه ، والغرض من تأليفه ؛ فبعد البسمة والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم يعرف بنفسه قائلا : (( قال الشيخ الفقيه الحافل المصنّف المحدث الأديب البارع أبو عبد الله..... ))<sup>25</sup>.

ثم يجعل تمهيده في موضوع اغتفار الهنات للكتاب الذيم يمثلون عند الأمراء والخلفاء أفضل مكان لملمهم أروع بيان في كل وقت وأن ، فيقول: (( أما بعد حمد الله الذي يعفو عن السيئات ، والصلاة على محمد رسوله الخاص بسيادة كل ماض وآت ، الحاض على اغتفار الهنات ، وإقالة عثرات ذوي الهيئات،... ))<sup>26</sup>، مشيدا بأهمية الكُتّاب في المجالس والمنتديات (( فهذه نبذة من إعتاب الكُتّاب ، وتشفيح الآداب ، تُشهر كمالهم في الاضطلاع والاكتماء ، وتشهد بما لهم عند الأمراء والخلفاء ، من كريم الاختصاص ولطيف الاحتفاء ، وكيف لا يكونون كذلك وهم مقال الدول وأسنة الممالك ،... ))<sup>27</sup>.

يسرد ذلك كله في أسجاع متوازنة تفوق الجملة والجملة . وهو المعروف عنه ذلك في نثره المنثور في كتبه . من مثل ما أورده في حق الكُتّاب قوله : (( ..مفردهم في الإفصاح ، يعدل جمع الكفاح ، وقصبتهم الصفيف يقاوي صمّ الرماح ، ويقاوم ذلق الصفاح... ))<sup>28</sup>.

كما يضمن منثوره أبياتا من الشعر خمسة منسوبة إلى سليمان بن وهب الكاتب . الذي ترجم له في هذا الكتاب<sup>29</sup> . قالها (سليمان) حين تناول قلما صلبا واعتمد عليه فصرّ تحت يده ، منها:

إذا ما حردنا و انتضينا صوارما يكادُ يصمُّ السامعين صريرها  
تظللُ المنايا والعطايا شوارعنا تدورُ بما شئنا وتمضي أمورها

وبعد ذلك يمثل المترجم بأربعة من الخلفاء كانوا كُتّابا ؛ وهم عثمان وعلي ومعاوية وعبد الملك بن مروان ، للتدليل بقيمة الكُتّاب وأهمية الكتابة ، ليستترد بعد ذلك في خطورة هذه المهمة التي ينبري إليها أفراد من جنس الكُتّاب مع أعداد من الشعراء، وقليل ما يتلاقى الفنان؛ فن الشعر مع فن النثر ، (( فإذا جُمعا في واحد ، لم تجدْ لفضله من جاحد ؛ وصنّف منهم حُسابٌ ، لا يقعُ بغير كفايتهم إحسابٌ... ))<sup>30</sup> ، ليختم هذه الفقرة بالتذكير بصفح النبي عليه الصلاة والسلام عن كاتبه ابن أبي سرح<sup>31</sup> .

ولما كان الهدف من هذا الكتاب ه طلب إقالة العثرات والصفح عن الأخطاء و الزلات بقي ابن الأبار المغضوب عليه من السلطان أبي زكريا الحفصي يضرب الأمثال بالملوك والخلفاء الذين أعتبوا كُتابهم ورضوا عنهم وغفروا زلاتهم كما فعل هارون الرشيد مع أحد الأمراء والقادة الشجعان يزيد بن مزيّد الذي عفا عنه بعدما سمع مقولته بعدما سأله الخليفة عارون الرشيد قائلاً: منذ متى اعتلّنت؟ قال (يزيد): (( ما مسّني سقمٌ ، ولكنني جفوتُ نفسي ، إذ جفاني أميرُ المؤمنين ، و آليتُ ألا أرضى عنها حتى يرضى أميرُ المؤمنين عني . فأعاده إلى حسن رأيه...)).<sup>32</sup> وكما فعل أبو جعفر المنصور برجل من أهل الكوفة جاءه مستشفعا بقوله: (( يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في تقبيل يدك ، فإنها أحق يدٍ بالتقبيل ، لعلوها في المكارم ، وظهرها من المآثم... فأعجب به المنصور وقربه)).<sup>33</sup>

وفي آخر مقدمة الكتاب يخصص كلامه للمرجو منه الإعتاب و الرضى والصفح عنه وما بدر منه لأنه كما قال عنه (( ..أسجعُ طباعاً ، وأفسخ في الفضائل باعاً ، ما زال يشرفُ احتراماً واصطناعاً ، ويُعرفُ إحساباً و إقناعاً ، وحقّ لمن عوّل على عدله المأمول ، وتوسّل بفضله المضمون)).<sup>34</sup> دون أن يغفل عن ذكر سعي المستشفع له وليّ العهد نجل السلطان الأكبر أبي زكريا الحفصي (( ثم نجله المبارك الميمون، أن يجتلي وجه القبول المأمول سافراً ، ويطمئن مقيمًا بما انزعج مسافراً ، فإنما دعا للتّوب قابلاً، وللذنب غافراً ، وسعى للعود بالخالص الذائب ، من ظفر الحادث وناب النائب ظافراً... وهذا ابتداء المقصود .)).<sup>35</sup>

## 2 . تراجم الكُتاب:

قبل التطرق إلى منهج ابن الأبار في تراجمه لشخصياته في كتابه " إعتاب الكُتاب" يجدر بنا أن نشير إلى أن عملية الترجمة ليست هينة و لاسهلة على المترجمين ؛ ذلك أن (( التعريف برجل من ذوي الشأن والخطر وترجمة حياته و وصفه من أسهل الأغراض الأدبية والمواد الكتابية ، فيكيلون لمن يترجمون له أو يعرفون به ألقاباً ونعوتاً بسخاء ، ويكون أكثرها كلمات مدح وإطراء مشتركة يمكن أن تقال عن كل عالم وأديب أو عظيم وجليل ، أو صالح وتقي ، أو حاكم حكومة...)).<sup>36</sup> فيكون القارئ حينها أمام شخص متشابهة ، لا يفرق بينها إلا الاسم الخاص بكل واحد منهم ، والعصر الذي عاش فيه ، أما باقي الصفات فمتقاربة ، يمكن أن تخلع على أي منهم (( ولا يخرج القارئ منها بمعرفة شخصية دقيقة معينة ، ولا يشعر بالحيوية والحرارة، ولا بالبرقة والنعمية ، ولا بالمرونة والحركية ، ولا بالعواطف والمشاعر...)).<sup>37</sup> ؛ لأن ما سيسجله المترجم لشخصيته يحظى بالأهمية التي يجب أن يفرد لها الكلام المستحق ؛ فإذا ما تصفحنا . على سبيل المثال . وفيات الأعيان لابن خلكان ( 681هـ) ووجدناه يصف أحدهم بالنحوي ، أو الفقيه ، أو الأديب... وغير ذلك من الأوصاف فقد أحاله المكانة التي لا يمكن لأحد أن يزحزحه عنها ؛ لأن تلك الصفة صادرة من صاحب اختصاص ، وذي سليقة في فن التراجم ، لذلك لا ينبري إلى هذه المهمة إلا أصحابها الموهوبون في هذه الصنعة .

والتراجم في هذا الفن أنواع ؛ منها التراجم العامة التي تجمع طائفة من الرجال . مثلا . يتباينون صناعة وطبقة وعصراً ، ويتفقون في صفة الاستحقاق ، نذكر منها " نزهة الألباء في طبقات الأدباء" لكمال الدين الأنباري ( 577هـ) ، و كتاب "معجم الأدباء" أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" لياقوت الحموي ( 626هـ)



والتراجم حسب العصور مثل كتاب " مختصر المائة السابعة " للمؤرخ علم الدين البرزاني ( 739هـ ) ،  
والمؤرخ المصري الأدفوي ( 748هـ ) في كتابه " البدر السافر وتحفة المسافر ".  
إلى جانب التراجم لسنة سنة ، وأخرى في كتب التاريخ العام أو في كتب الخطط والآثار ، وأخرى في كتب  
الطبقات (طبقات الصحابة ، الفقهاء ، المفسرين والقراء ، المحدثين والحفاظ ، النحاة ، الشعراء القضاة ،  
الأطباء....) وغيرها .

### منهج ابن الأبار في تراجمه :

وبالرجوع إلى كتاب " إعتاب الكُتَّاب " لابن الأبار نجد تَرْجَمَ لَكُتَّابَ مشاركة و كُتَّابَ الغرب الإسلامي ( شمالي إفريقية والأندلس ) ، مع عدم توخي الدقة في بعض التراجم<sup>38</sup> ، وعددها الإجمالي خمسٌ وسبعون ترجمة ، تختلف في الطول والقصر ؛ فبعضها يطول ليستغرق ثلاث عشرة صفحة ، كما فعل المترجم مع أبي عبد الله بن نخيل<sup>39</sup> ، وأخرى خمس صفحات من الكتاب بالطبعة محل الدراسة . مثل ترجمة الكاتب سهل بن هارون ، والعتابي ، وابن الزيات ، وسليمان بن وهب ، وابن زيدون ، وغيرهم ، وبعضها يَقْصُرُ فلا يزيد عن أسطر قليلة ؛ كترجمة الهادي وعبد الله بن سوار بن ميمون ، وأبي جعفر البغدادي ، وغيرهم . وللطول والقصر أسبابهما ؛ تعود إما إلى طبيعة المترجم له ؛ صاحب المعلومات والمعارف والحقائق التي تتيح للمترجم سعة في المادة وفرصة للإحاطة به ، وأو إلى مكانته عند المترجم ككاتب لولي نعمة على المنعم عليه ، أو لمحبة ، أو لوفاء... مثلما فعل ياقوت الحموي في كتابه " معجم الأدباء " مع صاحب بن عباد الذي ترجم له في مائة وخمسين صفحة ، أو مع أبي العلاء المعري بمائة وعشر صفحات ، وترجمة للأمير الفارس العربي أسامة بن منقذ في ستين صفحة ، في حين ترجم ياقوت نفسه لآخرين في أربعة أسطر .

ما ابن الأبار في " إعتاب الكُتَّاب " فاختر طريقة أخرى ، تُعدّ جديدةً مقارنة بما أشرنا إلى بعضها ؛ ذلك أنه لأنه إذا ما قارنًا عمله هذا بأعمال أخرى له نجده غير ذلك ؛ ذلك أنه في معجم له يسمى " المعجم في أصحاب القاضي الصدفي أبي علي حسين بن محمد ( 594 هـ / 1120 م ) " الذي ناغى به الفضل بن عياض ؛ المشهور بالقاضي عياض ، إذ يقول ابن الأبار نفسه عن العمل: (( فهؤلاء الرواة عن القاضي أبي علي بن سُكْرَةَ الصدفي السرقسطي ، ويُعرف بابن الدراج ، سموثُ إلى جمع أسمائهم ، وأبيات من شكائهم [ سكانهم ] ، بما أمكن ذكره من أنبيائهم ، مباحيا بهم وبعصرهم ، ومناغيا أبا الفضل بن عياض ، في جمع شيوخه وحصصهم ، ولا غرو فنحوه ، في المعجم الذي صنَعَ نحوثُ ، وفوز قُدْحِي بإخلاص كُدْحِي رَجَوْتُ ، ليمون هذا لذلك تَنَمَّه ، وليهونَ الوقوفُ منها عليهم مُؤْتَمِّينَ وأئمةً... ))<sup>40</sup>.

ثم يشير إلى طريقة تناوله شخصياته قائلا : (( وهاك ما اعتمدتُه على الحروف منسوقًا ، وبحسب التقدّم في الممات والتأخر ، والله يسعدنا بالثواب ،... ))<sup>41</sup> لبيدأ بحرف الألف ، بِمَنْ اسمه أحمد ثم من اسمه إبراهيم ، إلى أن يصل إلى حرف الياء ، متبعا في كل ذلك الترتيب الألفبائي ، كما جرت عليه تراجم كثيرة في باقي المؤلفات المتعددة.

أما في " الإعتاب " وتماشيا مع سبب تأليف هذا الكتاب وهو طلب الكتاب الرضى والعتبى من أولياء أمورهم، فإنه يبدأ

أول الأمر . بتحديد أسماء أولي الأمر من السلاطين والخلفاء والأمراء الذين كتب لهم صاحب الترجمة ؛ كأن يقول في ترجمته لمروان ابن الحكم : (( كتب لعثمان رضي الله عنه ، واستولى عليه ترجمة سليمان بن وهب<sup>42</sup> . وقد يسترسل في رسائل ترجمته كالتي كانت لسهل بن هارون ( 215هـ ) الذي كتب لهارون الرشيد يحي ابن خالد ، فيورد ابن الأبار . هنا . علاقة الكاتب البليغ الحكيم يحيي بن خالد وخدمته له ، ومجالسته إياه يكتب توقيعاته (( .فإني لفي مقعدٍ [ ي ] بين يديه ، أكتب توقيعاتٍ في أسفل كتبه لطلاب الحوائج إليه ، قد كلفني إكمالَ معانيها بإقامة الوزن فيها ،.. )) ، ثم يحكي خبر مقتل جعفر على يد أمير المؤمنين و أثر ذلك عليه وعلى الجميع، مستشهدا ببيت من الشعر في المناسبة ، ثم ذكر المترجم مكانة سهل عند الرشيد ، وعند ابنه المأمون والحكم التي كانت بينهما ( سهل والمأمون ) والأمثال التي سارت بينهما حول الحجاج بن يوسف وأمير المؤمنين ، وذكر معهما زياد بن عمرو العنكي وأبا دلف العجلي ، وفصص العفو التي ربطت بينهم جميعا ضربا للمثل في الصفح والغفران .

وضمن هذا الكم القليل أو الوافر مما يعرض ، نجد صاحب الإعتاب يهمل ذكر سني الولادة والوفاة للمترجم لهم ، على عكس ما عهدناه لدى كتاب التراجم الذين يهدفون . فيما يهدفون في تراجمهم . إلى ذكر سنوات الميلاد والوفاة إن وجدت ، والبيئة التي نشأ فيها ، والمجال الذي نبغ فيه ، ومعاصريه ، وبعض أقواله المأثورة ، وأثاره إن وجدت... كل ذلك في إيجاز غير مخل ، وعدم إطالة مع حصول الفائدة المرجوة، وفي إطار الموضوعية .

وقد لا يذكر المترجم قصة طالب الصفح كما جرت لقلة المادة التي بين يديه ، أو بقصد الإيجاز مع بعض الكتاب ؛ نحو ما ترجم به لأبي جعفر البغدادي قائلا : (( لحق بالمهدي . يقصد أبا جعفر البغدادي . في أول تغلبه على إفريقية وإثر البيعة له برقادة ، فولاه أمورا خفيفة ، ثم صار البريد وكتابة السلطان إليه ، وفسد ما بينه وبين عروبة الكتامي ، وهو حينئذ المستولي على المملكة العبيدية ، وأغراه به جماعة ، فصار البغدادي إلى خوف شديد ، وكان يتوقع الموت في كل يوم ، إلى أن قتل الكتامي منافقا ، وجيء برأسه إلى رقادة ، وقتل أخوه وأهل بيته ، وتمكن البغدادي من أعدائه ، وجلت حاله عند عبيد الله حين انتقاله إلى المهديّة، وانقطعت السعاية به، وتمادت خطوته إلى آخر أيامه، وولي ابنه القائم، فأبقاه خلى خاله مدة ))<sup>43</sup> . كما قد يعرض ابن الأبار أكثر من كاتب لولي أمر ما ؛ مثل ما نقله عن كاتب الحجاج يزيد بن أبي مسلم<sup>44</sup> ، وعن كاتب آخر للحجاج أيضا لم يُسمّه<sup>45</sup> .

وفي خضم هذا الاسترسال أحيانا يعاود ابن الأبار الكاتب طيف مولاة وابن مولاة الذي أكرمه وأحسن وفادته لما فرّ بجلده من بلنسية وأهله ، واستقدمه السلطان أبو زكريا الحفصي من بجاية التي كانت أولى محطاته وقربه . كما أشرنا سابقا . ولا يغيب عن المستعقب ذكر صاحب الفضل الذي من أجله كتب هذه الرسالة الكتاب ، فيقول : (( فلو تقدّم عصر مولانا الذي فضّل العصور الخالية ، وأحال على العطل الملوك الحالية،

لَقُلْتُ إِيَّاهُ تَقِيْلَ ، معارفَ وعوارفَ ، وعلاهَ تَسْرِيْلَ ، مِن تَوَالِدَ وطوارِفَ ، وإلا فهأنا مع الاصطناع الظاهر ، والاستشفاع بالنجل المبارك الطاهر)).<sup>46</sup>

وبهذه الطريقة المختلفة عن غيره من المترجمين قدّم ابن الأَبّار شخصياته المشاركة والمغاربة في شكل يضبطه سببُ تأليف كتابه الذي قدّمه للسلطان تائبا ، آيبا ، مستعتبا ، ضاربا لأجل الإقناع والتأثير نماذج من الأمثلة التي حفظتها كتب التاريخ والأدب ، وازيّنَتْ بها التصانيف ، وبقيت خالدة مخلّدة لخلق العفو والصفح الجميل على مرّ العصور.

### 3. خاتمة المؤلف:

يعلن ابن الأَبّار في خاتمة " إعتاب الكُتّاب " المصقود من مؤلفه مشفوعا بمآثر الكرام في طلب العفو من السلطان ، وقد أفرغ في ذلك طاقاته النثرية والشعرية عله يصيب الهدف ويُعتَبَ في ما اقترف من أخطاء ، وهو راض ، مُكْتَفٍ بما قدّم في هذه الرسالة (( قد لأوردتُ ما أردتُ من هذه المآثر الكرام/ المحفوظة النظام ، واقتداء خلفاء الله به [جلّ ] جلاله في التجوز عن الذنوب العظام ..))<sup>47</sup> ، معترفا بأن كل الأمثلة التي ساقها في عفو الملوك عن أخطاء كُتّابهم هي دون عفو السلطان أبي زكريا الحفصي ؛ إذ يقول : (( كل ذلك بالنسبة إلى الحلم الإمامي و الإسجاح ، كالذباله باهرت أنوار الصبح الوضّاح ، والصُّبابة كاثرت تيّار اليمّ الطفّاح ، يوم ابتزّ ما كان باليد اللسان ، واستقرّ العجلُ الذي خُلِق منه الإنسان ، فيا لمسرف على نفسه خائف ، ومستشرف طويّ بالإهمال طيِّ الصحائف ، لا جرم أنه تبوأ رتبة مُرفعة فربأ عن إسلامها بعد إحرزها يفعة ، متوقفا عن الانحدار فب الوقوف مع الاختيار ، ومتوكفا قبول الاعتذار بالبيت السيار :

لا تُهَيِّيْ بَعْدَ أَنْ لَأَكْرَمْتَنِي فَشَدِيدٌ عَادَةٌ مُنْتَرَعَةٌ ))<sup>48</sup>

وفي الرسالة يصف نزول خبر الإقصاء عليه وأثره فيه بعدما صار مخيرا بين التشريق والتغريب ، واختيار مكان يخرج إليه بعدما عظمت ذنوبه وانتشرت ريح شروره فضنن خاتمته من النثر ما يصف حاله ، ومن الشعر ما يرقق قلب السلطان لأحواله ، ((فصدر ما أثلج الصدر من إعفاء، وظهر إبقاء أوفى على الأمل أيّ إيفاء ، ثم في صبيحة اليوم الثالث هجم عليّ الكارب الكارث ، أُصَيِّرُ إلى الإقصاء من التقريب ، وأخير بين التشريق والتغريب ،..شرعت في المسير، وضرعت إلى الله في التيسير،جاليا للجلاء والرحيل أوجها تصلاه ، وتاليا من محكم التنزيل (( لاتقنطوا من رحمة الله)) وحسبي السميع والبصير)) (نعم المولى ونعم النصير)...وخلال ذلك من حسن الظن بالخلال الكرام ما حمل على أن قلتُ في بدء الحال، مرتقبا خفايا الألطاف ومقتريا بهدايا الاستعطاف، لاتضاح دليل الحذب ونجاح رسائل الأدب))<sup>49</sup> فنذكر مما قال [الكامل]:

لمُبَشَّرِي بِرِضَاكَ أَنْ يَتَحَكَّمَا لا المَالَ أَسْتَنْتِي عَلَيْهِ ولا الدَّمَا

تَاللهِ لا عُيْنُ امْرُؤٍ يَبْتَاغُهُ بِحَيَاتِهِ فَوْجُودُهُ أَنْ يُعَدَمَا

.....

مولاي رُحْمَاكَ التي عَوَدْتَنِي إِنِّي اعْتَمَدْتُكَ خَاضِعَا مُسْتَرْجِمَا

إن شعر الاستعطاف ( الاستشفاع) في ديوان الشاعر ابن الأَبّار ، قد أخذ نصيبا من حيزه لتعرضه للإبعاد أكثر من مرة ؛ لأنه أَعْضَبَ بِقَصْدٍ ، أو بغير قصد السلطان أبا زكريا الحفصي .

ولم يكن السلطان يأمر برحيل المغضوب عليه دائما ، بل كان أحيانا يحرمه من الامتيازات التي كان غيره من المقربين يتمتع بها . ولنا أن نتصور حال الشاعر ، الذي لا يملك بين يديه حرفة إلا قرص الشعر في قصور الأمراء والسلطين .

وفي موقف . كالعادة . لا يُحسدُ عليه يتوجه إلى ولي العهد الأمير أبي عبد الله محمد بن يحيى شفيع ابن الأبار لدى الحاكم الغاضب على الشاعر، معترفا صراحة بخطئه الذي لن يعود إليه ، ومعتبرا أن الموت في أرضهم خلود له ويكفيه رضاه وعفوه عنه ؛ لأنه أَلْفَه عَفْوًا ، وحاكما، شيمته الصفح عن المخطئين . قال [مخلع البسيط] <sup>50</sup> :

|                                   |                                   |
|-----------------------------------|-----------------------------------|
| مَوْلَايَ دَانَتْ لَكَ السَّعُودُ | أَخْطَأْتُ أَخْطَأْتُ لَا أَعُودُ |
| مَا لِي بِرَاحٍ وَلَا انْتِرَاحٍ  | مَؤْتِي فِي أَرْضِكُمْ خَلُودُ    |
| كُنْ لِي شَفِيعًا إِلَى إِمَامٍ   | لِيَسَّ عَلَى فَضْلِهِ مَزِيدُ    |
| عَادَتُهُ الْعَفْوُ وَالْمَوْالِي | تَعْفُو إِذَا أَخْطَأَ الْعَبِيدُ |

ولا يزال يصف حاله ، وقد أقبل عليه شهر رمضان (( على ارتماض لفقد المسكن والسكون ، وانقباض من تبسط الشجون الجون ، فشفعت وتر الاستقالة ، وضرعت أثناء الشمل المصدوع بهذه المقالة ، أعد قومي البشرى ، ولا أستبعد فوزي باليسرى:

بشرى بإسفار صباح النجاح عن صفحة الصبح وخفض الجناح))<sup>51</sup>.

ثم ينتقل إلى نتيجة الاستبشار التي وصله بما يتمنى ويرتضي بعد أن بلغه الإعتاب الذي بشأنه رصّ الجواب بما يحلو من الشعر ويُستطاب ، بعد أن <sup>52</sup>:

|                                             |                                              |
|---------------------------------------------|----------------------------------------------|
| أَجَارَ مِنَ الْخُطْبِ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ | فَقُمْتُ بِمَا أَوْلَاهُ أَتْنِي وَأَحْمَدُ  |
| و يَوْمَ أَتْنِي بِالْبَشَارَةِ رَسُلُهُ    | سَجَدْتُ وَفِي التَّبَشِيرِ لِلَّهِ يُسْجَدُ |
| .....                                       | .....                                        |
| تَشَفَعْتُ فِيهَا لِلْإِمَامِ بِنَجْلِهِ    | وَنِعَمَ شَفِيعِ الْمُذْنِبِينَ مُحَمَّدُ    |

ليختم الرسالة بـ (( نجزت الرسالة الموسومة بإعتاب الكتاب ، صنعة الإمام [الحافظ] أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار ، [رحمه الله تعالى ورضي عنه ، [وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله صحبه.))<sup>53</sup>

ليكون مسك ختام تراجمه أبا الربيع بن سالم ؛ شيخه ومربيه الذي يعده أباه الثاني ، قال عن . هنا . (( شيخي الذي أورثني هذه الصناعة ، ورضي اتحاذاها لي بضاعة ، وضمن أن لا إضافة ولا إضاعة ...))<sup>54</sup>.

وكان شيخه أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي من بين الشهداء الذين سقطوا في هذه المعركة الطاحنة ، عن عمر يناهز سبعين عاما، بعدما أبلى البلاء الحسن ، فانبرى التلميذ . الذي لم يحضر الموقعة . يرثي شيخه ، الذي كان له عليه عظيم الفضل، فيقول في قصيدة بلغت بيتا ومائة بيت؛ أفرد منها خمسين بيتا لشهداء الموقعة ، وواحدا وخمسين بيتا أخرى في رثاء أستاذه الربيع الكلاعي، يقول في أولها [الطويل]:

أَلْمَا بِأَشْلَاءِ الْعُلَا وَالْمَكَارِمِ نَقَّدُ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالصَّوَارِمِ

ويقول في آخرها :

وهذي المراثي قد وقيئت برسمها مسهمةً جهدَ الوفيِّ المُساهم  
فمُدَّ إليها رافعاً يَدَ قابلٍ أكبَّ عليها خافِضاً فَمَ لاثم

#### 4. بعض سمات أسلوب ابن الأبار في الكتاب:

يختلف أسلوب ابن الأبار في " الإعتاب " عن بقية المترجمين الذين ذكرنا بعضهم اختلافاً بينا ؛ ذلك أنه : في النثر كثير الأسجاع على طريقة كتاب زمانه ؛ لأنه يعتمد السجعة اعتماداً في جملتين وثلاث وأربع ، ويظهر ذلك جلياً منذ المقدمة ((..وكثيراً ما احتملت بوادهم ، واستحلّيت نوادهم ، وقبلت جيئاتهم و أوباتهم..))<sup>55</sup> ، وطباق في العبارات ((..فدفع كلَّ ضرٍّ ورَضٍّ ، وأطلع لمحاورتي سنة وفرض ، ومحاولتي بسط وقبض ))<sup>56</sup> ، بالإضافة إلى الولوع بالتشبيهات والصور البيانية المختلفة.

ونجده مضمناً نثره شعراً كثيراً ، ينثر الشعر أحيانا نثراً ، ويتركه أحياناً كما هو شعراً ، يزينه بالأمثال السائرة في معاني الحكايات الدائرة والحكم النيرة (( من جمع بلاغة وخطأ لم يخش في دولة الأفاضل خطأ ))<sup>57</sup> . أما الآيات القرآنية فهي في الكتاب غير قليلة ، يضمنها المعاني المناسبة ((..ومحاولتي بسط وقبض ﴿ ذريةً بعضُها من بعض ﴾))<sup>58</sup> .

كل ذلك يرجع فيه المترجم إلى أكثر من عشرين مصدراً هاما ، يثبتها مع المتن ، لينقل الحكاية كما وردت فيها، مثل : أخبار الدولة العامرية لابن حيان ، والأُمالي لأبي علي القالي ، ووالذخيرة لابن بسام ، والأخبار المنثورة للصولي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه وبيتيمة الدهر للثعالبي ، وغيرها من أمات المصادر التي وثق من خلالها ابن الأبار معلومات المترجم لهم ، تحقيقاً للدقة وتقصياً للأخبار.

#### خاتمة :

لكتاب " إعتاب الكُتاب " لابن الأبار أهميةٌ بالغة ، يجب الإشادة بها والتنويه بما يضمه الكتاب بين دفتيه ؛ فهو . إلى جانب أنه يؤرخ لمرحلة تاريخية فارقة ، جمع فيها المترجم أخبار كُتاب ووزراء في الشرق والغرب الإسلاميين ، قاصداً بذلك ضرب المثل للسلطان أبي زكريا الحفصي الذي تبرم منه في آخر حياته في كتاب يرجو منه إعتابه وإقالة عثراته ، متناوِلاً في ذلك أهم الأمثلة التي تدور حول موضوعه الذي اختاره عنواناً لرسالته. فإن للكتاب قيمةً أدبيةً بما تضمّنه من قصائد شعريّة ومقطّعاتٍ ، ورسائلٍ نثريةٍ، سعى الكُتابُ المغضوب سعيهم لأجل إقناع ساداتهم الغاضبين منهم؛ وزراءً وملوكاً وأمراءً ، والكُتابُ هم أصحاب الخبرة والدربة في مجال تدبيج الرسائل والتوقيعات ؛ لأنهم أدري بصناعتهم ، وأثبت في كتاباتهم ، وأقدر ، أو كما يقول ابن رشيق القيرواني في شأنهم: (( الكُتابُ أرقّ الناس في الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيفاً ، وأحلاهم لفظاً ، وألطفهم معاني ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف ، وقد قيل : الكُتابُ دهاقين<sup>59</sup> الكلام ))<sup>60</sup> .

وقد عدّ هذا المؤلّف بطريقة . أشرنا إليها سابقاً . فرضتها الظروف التي ألمّت بابن الأبار في تونس إبان حكم الحفصيين ، والتي ساهم في إنكاء نار هذه الأزمة بين الكاتب والسلطان محيطو القصر الحفصي والحساد

الذين لا ينتنون عن إصاق التهم للأندلسي البنسي الذي جاءهم من العدو الأخرى ، وحظي بما لم يحظ به  
البلديون.  
الهوامش

<sup>1</sup>. ينظر : ترجمته في : الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 355/3 ، 356 . محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق محمد  
محي الدين عبد الحميد  
ج2 ، دار الثقافة،بيروت ، 1974 ، 4404/3 . 407. ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، 652/6 . 655. المقري ، نفح الطيب  
، 2 ، 589/ .  
594.

. الغبريني احمد ، عنوان الدراية ، تحقيق رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1970 . 309 . 313 .  
محمد عبد الله عنان ، عصر  
المرايطين والموحدين ، 705/2. ابن القنفذ القسنطيني ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي وعبد  
المجيد التركي الدار التونسية  
للنشر تونس ، 1968 ، ص 126 . 127 . الزركشي ، تاريخ الدولتين الحفصية الموحدية ، تحقيق محمد ماضور  
المكتبة العتيقة ، تونس  
1966 ، ص 28 . 35 . 36 . جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية مطبعة الهلال ، مصر ، 1913 . 77/3 . 78 .  
أحمد أمين ، ظهر  
الإسلام ، 280. 279/3 .

<sup>2</sup> . القضاعي : نسبة إلى بني قضاة ، قيل من حميرمن القحطانية ، وقيل من عدنان؛ فمن قال من حمير بن الكلبى وابن  
اسحاق وغيرهما ، فقالوا:  
قضاة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك من حمير. ومن قال من عدنان ذكروا أنه قضاة بن معد بن عدنان ، قال  
ابن عبد البر وعليه  
أكثر . ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب (تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف، القاهرة، ط1971، 3) . 460. 440. والقلقشندي  
، نهاية الأرب  
تحقيق علي الخاقاني، بغداد، 1958، ص 366.

<sup>3</sup> . إبراهيم الأبياري ، المقضب من كتاب تحقيقه القادم ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة . بيروت ط2 ، 1982 ، ص 14.  
<sup>4</sup> . ابن الأبار ، الديوان ، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس ، دار التونسية للنشر، ط2 ، 1986 ، ص 445.  
<sup>5</sup> . والقصيدة في الديوان ( الملحق الأول ) ، القطعة 13 ، ص 445.  
<sup>6</sup> . عبد المالك الأنصاري الأوسي المراكشي المراكشي ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة تحقيق: محمد بن شريفه و  
إحسان عباس، دار الثقافة ،

بيروت ، لبنان ، ط، دت . 179/4 .

<sup>7</sup> . ينظر : ابن الأبار، التكملة ، تحقيق : حسن العطار الحسيني ، مكتبة الثقافة الإسلامية ، القاهرة 1956 ، 2 / 889.

<sup>8</sup> . ابن الأبار ، الحلة السيرة ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1985 ، 7/1 .

<sup>9</sup> نفسه ، ص 17 .

<sup>10</sup> . ينظر : ابن الأبار، الديوان ، ص 275...284 .

<sup>11</sup> . نفسه، القطعة 124 ، ص 275 .

- 12 . نفسه ،القطعة 124 ، ص 277 .
- 13 . ينظر : ابن الأَبَّار ، الديوان ، ص 185.113.
- 14 . هذا البيت للمنتبّي ، قاله من ضمن قصيدة أنشدها في صباه ، وأولها :  
كَمْ قَتِيلٍ كَمَا فُتِلْتُ شَهِيدٍ لِبِيَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخُدُودِ  
حَتَّى يَقُولُ : فَاطْلُبِ العِرَّ فِي لَطَىِّ وَ ذِرِّ الدَّ لَّ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الخُلُودِ  
(ينظر :المنتبّي ، ديوان المنتبّي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، دط ، 1983 ، ص 21 .)
- 15 . ابن الأَبَّار ، الديوان ، القطعة 123 ، ص 274.
- 16 . نفسه ، ( المقدمة ) ، ص 13.
- 17 . ماهر زهير جرار ، ابن الأَبَّار الأندلسي الأديب ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، حزيران، 1983 رسالة ماجستير . مخطوط . ص 117.
- 18 . الغبريني ، أبو العباس أحمد بن أحمد ، عنوان الدراية فيمَنْ عُرِفَ مِنَ العُلَمَاءِ فِي المَائَةِ السَّابِعَةِ بِبجاية، تحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1970، ص311.
- 19 . ابن الأَبَّار ، الديوان ،القطعة 17 ، ص 447.
- 20 . نفسه ،القطعة 18 ، ص 448.
- 21 . يُنظَرُ : ابن الأَبَّار ، الديوان ،القطعة 165 ، ص 356.
- 22 . ينظر : ابن الأَبَّار ، الديوان ، القطعة 165 ، ص 355.
- 23 . ابن الأَبَّار ، الديوان ، القطعة 23 ، ص452.
- 24 . نفسه ، ( المقدمة ) ، ص14.
- 25 . ابن الأَبَّار ،إعتاب الكُتَّاب ، حققه وعَلَّقَ عليه وقَدَّمَ له : صالح الأَشتر ، دار الأوزاعي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1986 ، ص43.
- 26 . نفسه ، ص43.
- 27 . نفسه ، ص43.
- 28 . نفسه ص44.
- 29 . ينظر : ابن الأَبَّار ، إعتاب الكُتَّاب ، الترجمة رقم : 36 ، ص 138 ، وما يليها.
- 30 . نفسه ، ص45.
- 31 . هو عبد الله بن أبي سرح القرشي المكي ، أخو عثمان بن عفان من الرضاع ، أسلم قبل فتح مكة ، وهو أحد كُتَّاب الوحي للنبي ، و ولي مصر وفتح إفريقية ، ومات سنة 37هـ . ( الأعلام : 220/4 ، 221).
- 32 . ابن الأَبَّار ، إعتاب الكتاب ، ص47.
- 33 . نفسه ، ص47.
- 34 . نفسه ، ص47.
- 35 . نفسه ، ص 47 ، 48.
- 36 . الندوي أبو الحسن علي الحسني ، كلمة عن أدب التراجم والحديث عن الكتب ، كلية اللغة العربية وآدابها ، مطبعة ندوة العلماء لكهنؤ ، الهند ، دط، 1985 ، ص4.

- 37 . نفسه ، ص 4 .
- 38 . الترجمة 23 لداود القيرواني المغربي الذي جعله المترجمُ ضمن قائمة المشاركة ، وصاحب الترجمة 48 عبد الله بن محمد الزجالي الأندلسي أيضا .(ينظر: ابن الأَبَّار ، إعتاب الكُتَّاب ، بالترتيب ص 104 ، 171 .).
- 39 . نفسه ، ترجمة 7 ، ص 231 .
- 40 . ابن الأَبَّار ، المعجم في أصحاب القاضي الصَدْفِي ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1989 ، ص13 .
- 41 . نفسه ، ص14 .
- 42 . ينظر : ابن الأَبَّار ، إعتاب الكُتَّاب ، ص 138 ، وما يليها .
- 43 . نفسه ، ترجمة 54 ، ص 187 ، 188 .
- 44 . نفسه ، ترجمة 4 ، ص 57 .
- 45 . نفسه ، ترجمة 5 ، ص 59 .
- 46 . نفسه ، ترجمة 19 ، ص 90 .
- 47 . نفسه ، ص250 .
- 48 . نفسه ، ص 251 .
- 49 . نفسه ، ص 251 . 252 .
- 50 . نفسه ،القطعة 123 ، ص 274 .
- 51 . ابن الأَبَّار ، إعتاب الكتاب ، ص 253 ، 254 .
- 52 . ابن الأَبَّار ، الديوان ، القطعة 7 ، ص 180 .
- 53 . ابن الأَبَّار ، إعتاب الكُتَّاب ، ص 257 ، 258 .
- 54 . نفسه ، ص 245 .
- 55 . نفسه ، ص 45 .
- 56 . نفسه ، ص 232 .
- 57 . نفسه ، ص 246 .
- 58 . الآية 2 من سورة آل عمران ، ص 232 .
- 59 . الدهاقين : جمع دهقان . بكسر فسكون . وهو التاجر البارع .
- 60 . ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حققه وفصله وعلق حواشيه : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل،بيروت ، لبنان ، دط ، 1934 ، 106/2 .